في بداية الخمسينات ، بدأت سميرة عزام خطوتها الادبية ، ولكنها ظلت عبر السنوات الطويلة الآتية قليلة الانتاج ، قصيرة النفس ، لا أثر لها واضحا بين ابناء جيلها ، ولعلها غفلة تشبه الخطيئة ، تلك التي وضعت سميرة عزام وراء جدار الضجيج ، الذي أتيح لبعض كاتبات القصة ذوات النزعة العاطفية — وان شئت — الجنسية المباشرة . ولقد كانت جرأتهن هامة وتستحق هذا الالتفات دون شك ، ولكنها في النهاية لا تشكل مقياسا ابداعيا. لقد كان رجاء النقاش اول من التفت الى ذلك في محاضرة ألقاها في كانون الاول من ١٩٦٧ بمناسبة المهرجان التأبيني الذي اقيم على اثر وفاة سميرة عزام في بيروت . ولقد وضعها على رأس مدرسة هي احدى مدرستين طالبتا بتحرير المرأة . المدرسة الاولى — كما يرى — دعت الى حرية المرأة بمعنى خاص ، وهو معنى مستمد من حياة الصالونات ومن حياة الارستقراطية الغربية والعربية « وهو من اكثر المعاني زيفا ورخصا .. » ، في حين كانت المدرسة الادبية الثانية التي تقف على رأسها سميرة عزام ، تقوم على دعائم خمس ، منها انها ترفض ان تجعل للمرأة قضية مستقلة عن قضية الرجل ، وان حرية المرأة مرهونة بحرية المجتمع كله ، كما انها استطاعت ان تصل الى هذه القضية الجوهرية — كما يرى النقاش — بسبب انها اختارت نماذجها من الطبقات الشعبية ، حيث تبدو الحقيقة الاجتماعية والوطنية والانسانية واضحة . وهي الى هذا كانت تحمل دائما في قلبها مأساة فلسطين. بحيث من الممكن ان نقول بأن أدب سميرة عزام هو ادب ثوري ، بمعنى انه يخدم ويكشف الحقيقة الاجتماعية التي يمكن ان ينطلق منها التطور الصحيح . واخيرا هناك قضية العاطفة الانثوية في أدب سميرة — تلك القضية التي كان يراها بعض النقاد غير متوفرة لدى قصصها . ولكن النقاش ، يرى انها كذلك ، اذا ما كانت الانوثة تعني العرض المحموم المريض لبعض التوترات المراهقة ، او التركيز على الاستمتاع بتقديم الصور الجنسية او المشاعر الجنسية بدون اي مناسبة او مبرر .. دون ذلك سنجد في ادب سميرة التعبير الصادق عن العاطفة وعن الانوثة ، كنموذج رائع . لماذا ؟ لانها لا تضع العاطفة ولا الانوثة في اطار خاص وتعزلهما عن الحياة ثم تركز رؤاها وصورها الفنية عليهما . عبر كل ذلك يجد رجاء النقاش ان سميرة عزام كانت افضل كاتبات القصة القصيرة في أدبنا العربي المعاصر منذ ان اشتركت المرأة العربية في هذا الميدان ، ميدان القصة القصيرة الى اليوم (راجع الاداب العدد الاول ، كانون الثاني ١٩٦٨) .

لقد ماتت سميرة عزام وهي في طريقها الى الاردن بعد فترة قصيرة من حرب حزيران ١٩٦٧ ، ومنذ تلك الفترة لم تقدم دور النشر نتاجا جديدا لها ، باستثناء « دار العودة » اخيرا التي قدمت لها مجموعة قصصية ، تشكل — كما هو ظاهر — البقية الباقية من نتاجها ، ولقد صدرت بعنوان احدى القصص التي تضمها ، ويبدو انه اختير من قبل الناشر نفسه . فلو كانت المجموعة معدة من قبل القاصة في حياتها لاستغنت دون شك عن بعض قصصها مثل « فلسطينيات » التي تعتبر خواطر وجدانية لا غير ، و« الملح » التي تتجاوز ، في طرحها جوانب انسانية مائعة ، كل حدود اللعبة القصصية . ولو كانت المجموعة معدة من قبلها ايضا ، لما ارتضت ان تقدم مسودتين لقصة واحدة. لا احسب ان القاصة قد انتهت الى قناعة تامة في اختيار واحدة منهما ، وهما قصة « المحروس » وقصة « الصغير » وكلاهما تروي حكاية رجل يترقب بقلق يختلط فيه الفرح بالخوف ، مخاض زوجته ، فهو يفكر تارة بالوليد الجديد ، ضائعا متوزع العواطف بين امنيته ان يكون صبيا ، او صبية ، منشغلا حد الاستغراق في اختيار اسمين ملائمين ، وتارة يفكر بزوجته التي تخضع لآلام الولادة القاسي . القصتان تتماثلان في كل شيء ، اللغة باستثناء جملة هنا وهناك ، وكلمة في هذا السطر او ذاك ، والحدث ، والتوتر ولكنهما تختلفان في الخاتمة ، وهو اختلاف مدهش يدل دلالة واضحة على ان القاصة توقفت بينهما دون ان تنتهي الى خيار : الاولى تنتهي بمكالمة هاتفية من المستشفى ، فيبلغه صوت امه هادرا من الطرف الآخر ، « مبروك ابو صالح » صالح .. صالح « يا الهي كيف نسي ذلك .. كيف فاته ان ابنه البكر يجب ان يحمل اسم ابيه .. ما كان اغباه حقا » ص ٧٣ . والثانية تنتهي نهاية لا علاقة لها من قريب او بعيد بتلك . فالاب ، وهو في